مظاهر تشكيل السيرة الذاتية في الشعر النسوي
"شذرات من ذاتي لعائشة جلاب أنموذجا"

Manifestations of Autobiographical Formation in Feminist Poetry
Fragments of myself as a model Aisha Jallab

ط.د الحبيب عبيدات *

د. سامي الوافي ♣

تاريخ الإرسال: 2020/08/03	تاريخ القبول: 2021/04/29	تاريخ النشر: 2021/09/15

الملخص:

تهدف هذه الدّراسة إلى الوقوف على مظاهر تشكيل الخطاب الشّعري السير ذاتي، بوصفه نوعا هجينا يجمع بين السيرة الذاتية والشّعر، مُولّدا لنا شكلا أدبيا جديدا وُسِم بالقصيدة السير ذاتية، مؤملاً كشف اللثام عن عناصرها، وعن المرتكزات الأساسية التي تنهض عليها، ومعاينة التجربة الشعرية النسوية في كتابة السيرة الذاتية شعريا، وقد انتخبت الدّراسة ديوان "شذرات من ذاتي لعائشة جلاب" كعينة اجرائية للدراسة.

الكلمات المفتاحية: مظاهر، تشكيل، السيرة الذاتية، الشعر النسوي، عائشة جلاب

Abstract:

This study aims to examine the aspects of the formation of the autobiographical poetic discourse, as a hybrid type that combines the autobiography and poetry, creating for us a new literary form marked by the poem autobiography, hoping to uncover its elements, and the basic foundations on which it stands, and to examine the feminist poetic experience in Writing an autobiography in poetry .. The study has selected a collection of "Fragments of My Self by Aisha Jalab" as a procedural sample for the study.

المؤلف المرسل الحبيب عبيدات abidatelhabib@gmail.com

* جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي، مخبر تعليمية اللغة العربية والنص الأدبي في النظام التعليمي الجزائري - الواقع والمأمول، abidatelhabib@gmail.com

♣ جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي، مخبر تعليمية اللغة العربية والنص الأدبي في النظام التعليمي الجزائري - الواقع والمأمول، louafi_2010@yahoo.com

Key words: *Manifestations, Formation, Biography, Feminist Poetry, Aisha Jalab*

*** *** ***

. مقدمة:

لقد عرفت نهاية القرن التاسع عشر تطورا بلغ الأجناس الأدبية، مما جعلها تقبل التداخل فيما بينها فبرز عن هذا التداخل ظاهرة أدبية جديدة، تمثلت في تداخل الأجناس الأدبية، فأصبحت العلاقة بينها أكثر تعالقا وانسجاما واختلاطا، ومن بينها نجد فن السّيرة الذاتية، التي تعتبر من الفنون المراوغة غير محددة الملامح،

إن السّيرة الذاتية ليست جنسا خالصا؛ بل إنه شديدة الاختلاط مع أجناس أخرى من بينها الشّعْر، الذي انفتح عليه، لينتج لنا هذا التّداخل الأجناسيّ شكلا أدبيًا جديدًا، عُرف بالقصيدة السير ذاتية.

تعدُ القصيدة السّير ذاتية من السّمات البارزة في العصر الحديث، ومن المواضيع التي بدأ الاهتمام بها مؤخرا؛ لأن الاهتمام كان منصبا على القوالب النثرية، كالرواية والقصة أكثر من الشّعر، الأمر الذي جعل الكثير من الدارسين يؤسسون لدراسات جادة حولها، وفي دراستنا لهذا الجنس الأدبي الجديد، وقع اختيارنا على ديوان "شذرات من ذاتي لعائشة جلاب[1]، التي نراها توظف سيرتها الذاتية في كتاباتها الشعرية.

وقد قامت إشكالية البحث على أسئلة فحواها كالآتي: ما دلالة مصطلح القصيدة السّير ذاتية؟ وماهي الركائز الأساسية التي تقوم عليها؟ وكيف تجلى التشّكيل السّير ذاتي في شعر عائشة جلاب؟ وما مدى اشتغال عناصر السرد في فضاء القصيدة السّير ذاتية عند عائشة جلاب؟

2. القصيدة السّيرذاتية: قراءة في المصطلح والنّوع الأدبي:

إن القصيدة السير ذاتية فن هجين يسير على خطى السردية الواقعية، يعترف ويبوح بخصوصية الذات/ الأنا الشعرية، ويعبر تعبيرا صادقا عن تجربة انسانية صادقة يتم تجسيدها من واقع الحياة إلى خطاب ينبض بالحياة؛ ينبعث منه شعور الشاعر وبكل

مصداقية، تتكون القصيدة السّير ذاتية من جنسين مختلفين هما: السيرة الذاتية والشعر، لهذا صعب على الدّارسين وضع مفهوم جامع ومحدد لها، يعرفها 'محمد صابر عبيد' بأنّها " قول شعري ذو نزعة سردية، يسجل فيه الشاعر شكلا من أشكال سيرته الذاتية، تظهر فيه الذات الشعرية السّاردة بضميرها الأول، متمركزة حول محورها الأنوي، معبرة عن حوادثها وحكاياتها عبر أمكنة وأزمنة وتسميات، لها حضورها الواقعي خارج ميدان المتخيل الشعري، وقد يتقنّع الضّمير الأول بضمائر أخرى حسب المتطلبات والشروط التي تحكم كل قصيدة سير ذاتية" [2] .

من خلال هذا التعريف نتبين العناصر الأساسية، التي يحتويها هذا النوع إذ إنها؛ عبارة عن قول شعري ذو نزعة سردية، حيث تكون الأنا السّاردة هي المسيطرة على عناصر السّرد، كالأحداث المروية بصورة واقعية إضافة إلى عنصري الزمان والمكان، ثم يبين 'محمد صابر عبيد' الشروط التي تحكمها فيقول: "يشترط في اعتماد سير ذاتية القصيدة حصول اعتراف ما مدون بإشارة أو قول أو تعبير، يؤكد فيه الشاعر وعلى نحو ما المرجعيات الزمنية أو المكانية أو الشخصانية للحوادث والحكايات التي تتضمنها القصيدة وتؤكد صلاحية المعقود بين الشاعر-السارد-والمتلقي على هذه الأسس"[3] .

فأول هذه الشّروط حصول اعتراف صادق مدوّن يوفره الشّاعر، قصد فهم مضمونها وإثبات مصداقية الحوادث المتعلقة بالذات، منتمية إلى مرجعيات زمانية ومكانية، كما يوضح لنا شروط تمركز السّيرة الذاتية بقوله: " تتمركز السيرة الذاتية في القصيدة الواحدة، يشترط أن تكون طويلة بحيث تعطي صورة واضحة تعكس طبيعة الترتيب التصاعدي على مستويات السر أو الحدث أو الفضاء، أو مجموعة قصائد تشكل مجموعة شعرية واحدة أو في أكثر من ذلك، كما لا يشترط في ذلك التزام نوع شعري معين، إذ إن كل الأنواع الشعرية المعروفة " قصيدة عمودية- قصيدة حرة- قصيدة نثر" صالحة في حالة توافر الشروط السير ذاتية، للانتماء إلى هذا النوع الفني "[4].

يمكن لنا أن نلخّص الركائز الأساسية، التي تقف عليها القصيدة السير ذاتية وهي: (ذات (الأنا)- أحداث واقعية - قصيدة بأنواعها)، لنخرج في النهاية إلى أن القصيدة السّير ذاتية : "ما هي إلا سرد استرجاعي لحياة منظومة شعرا، يروي فيه شخص حقيقي شعرا سيرياً عن حياته ووجوده الخاص، مركزا حديثه على الحياة الفردية، وعلى تكوين شخصيات بالخصوص، مستنداً في كل ذلك إلى آليات المنظومة الذّاكراتية " [5]؛ أي أنّها تعتمدُ على الذّاكرة في استعادة القضايا الحياتية المعاشة، التي يوّد الشّاعر التعبير عنها.

نخلص إلى نتيجة مفادها أن جُلّ هذه التّعاريف تتلاقى في مفهوم واحدٍ، هو أن القصيدة السير ذاتية : قول شعري ذو نزعة سردية، يتداخل فيها السّرد مع الشّعر في إطار التّشكيل السير ذاتي.

3. سيمات النّص السّيرذاتي في ديوان "شذرات من ذاتي لعائشة جلاب ":

1.3. تجليات الضّمير السّيرذاتي :

يعد الشّعر النّسوي من الخطابات التأسيسية لسؤال موقع المرأة، أَعلن ضميرها صراحة وبشكل مباشر ، "وطَرحَ مسألة انتقال ضميرها من موقع المفعول به إلى موقع الفاعلة، من المسرود لها إلى السّاردة "[6].

من وسائل بروز الذّات استعمال ضمير المتكلم "الأنا"/الذات، إذ يعتبر من أهم تقنيات السّرد الدالة على علاقة التطابق، ويعَد من أسلوب السّيرة الذاتية الأمثل "يحيل على الكاتب، والشخصية "[7]، فهو قادر على "التوغلِ إلى أعماق النفس البشرية فيعريها بصدق، ويكشف عن نواياها بحق"[8]، كما أن استعماله "نشأ متواكبا مع ازدهار أدب السيرة الذاتية، فكأنه امتداد لها، أو كأنها امتدادٌ منه "[9]، يحضر بكثرة في القصيدة السّير ذاتية، حيث يعبر عن شخصية السارد/الشاعر نفسه، وهذا ما أقرّ به حاتم الصّكر حيث يقول: "ستضاف باستخدام الشّعر في السّيرة، أنا رابعة هي أنا الشّاعر الذي يرتبُ خطاب الشعر

ويظهر فيه، تبعا لاشتراطاته التي تتنازع مع خطاب السّيرة القائم أساسا على السّرد، وتحاول المحافظة على شعرية القصيدة من جهة، واستثمار سردية السيرة من جهة أخرى "[10].

يتجلى ما طرحناه آنفا في شعر عائشة جلاب، التي اعتمدت على الخطاب الشّعري السّير ذاتي، إذ تتمظهر سيرتها ممثلة في شعرها، تتوغل فيها الأنا/الذات لكشف أسرارها الخبيئة. تقول في نصها " إلى أبي":

" صعب رثاؤك يا أبي

قد مرت السنوات والدمع المكابر يسكن

الأشواق ... والأوراق... والأحداق

كم ذا توسلت القصيدة أن تجيء

فوضعت بعض الشمع والورد الجميل

وأمامها كوكب من الشاي الثقيل

الكل يأتي والقصيدة لا تجيء

تتعذر...من دون إعطاء الدليل

فألملم أشيائي الصغرى، وأطفئ نور فانوسي الضئيل

ثم اخلد للعويل

ooo ooo oooo

فاليتم بعثرني كأوراق الخريف

وأنا أقلب فوق الجمر الشعر، اشوى كالرغيف

والعمر أزهار يفتتها الحنين بروضة القلب الشغوف "[11].

تستحضر الشّاعرة صورة الأب وتعبر عن مناخها العائلي، مصوّرة فجيعتها الشّديدة على أبيها، الذي رحل في يوم عيد ميلادها ويوم عيد الأضحى، اجتمعت عليها هذه الأعياد

لتصنع جرحا كبيرا اسمه اليتم، حينها تتعمّد الغوص في دُجى اللّيل، وتطفئ فانوسها ثم تخلد إلى العويل؛ لتعلن فقدانها للجوّ الأليف الحَميمي مع والدها.

تنتقلُ بنا الشاعرة عن طريق السّرد الشعري السّير ذاتي إلى جو آخر، تحكي فيه عن حياتها الحزينة والمعذبة، وتسرد فيها صورة الأب بوصفه سَندا متينا لها تقول:

" إنا هرمنا بعد موتك يا أبي

شاخت بنا الأيام والأحلام والعمر المضيء

فالبيت بعدك قد تصدع وانحنى

أبوابه... جدرانه قد صار يعصرها الحنين إلى يديك

قد صار اطلالا تنوح بين أنياب السنين

وتركتنا ... لا ظهر يسند ضعفنا

لا قلب يحمي خوفنا

والريح توشك أن تُطير سقفنا "[12].

هذا الفضاء الأبوي الغائر في أعماق سّيرة الشاعرة الذاتية، وهي تستعيد جوهر اللحظة تبحث عن أناها في الماضي عن لحظة حميمية، تحاول أن تُعيد مفاهيم البراءة والحنين عن طريق والدها، الذي يمثلُ لها لحظة الاشتياق إلى الماضي، تتحدي غيابهُ الأبدي الذي يحاول أن يتغلب على ذاكرتها، وتبحث عن لحظة بريئة وآمنة في حضن والدها، تحوّل الاستذكار السّير ذاتي إلى الماضي نحو أعلى درجاته إلى حالة كبيرة من الضّياع والتيه والاستلاب، فنلاحظ ارتباط جد وثيق بين الذات الواصفة؛ أي السّارد وضمير(الأنا)، وفي هذا السيّاق تروي الشّاعرة ذكرياتها فتقول:

"إنني أذكر أياما من الحزن ثقيلا

وكلانا عن ثرى الصلح بعيدا، أبد يأبى النزولا

فجأة تشتاق لي

لتجيء خفية، حين تلقي لي تحت الباب وردات خجوله

علني أفهم ما تعني الرسوله

ثم نصحو كمجانين اتوا من ألف ليلة

كي نعيش...قصص العشاق في طور الكهولة "[13].

تسترجعُ الشاعرةُ ذكريات ماضية وتحاول كتابتها في الحاضر، فتباشر الأنا السّاردة في كشف أزمة التيه والضّياع، التي تعانيها فتصبح ذكرياتها دون مذاق، فاتحة لها حزنا ثقيلا وثرى الصلح بينها، وبين حبيبها بعيدا يأبى النزول، ترسم الشاعرة مشهدا دراميا ترصد من خلاله حالة وجودية، يتعرض لها الإنسان في حياته، والإنسان هو الشاعرة المتمثل بضمير المتكلم الذي يحضر في النص/ المشهد، مكتنز بدلالات اجتماعية تدعوا إلى بناء علاقات لا تفككها الكراهية، وهذا يعكس حالة الألفة والتناغم بينها وبين حبيبها فيَصْحُوَانِ كمجانين أتوا من ألف ليلة، ويعيشان قصص العشاق.

لقد غاصت بنا الذات الشاعر/ السّاردة في جزيرة السّرد، فأثارت مكامن الذّات الكاتبة والذات المتلقية معا على المكوثِ طويلا في فضاء الخطاب،

كما يتجلى طغيان الأنا على نحو يعزز الذاتية، في قصيدة "ربّما" تقول:

"وأنا أصرخ غضبي،،، أرفس الأرض برجلي

أنني لم ألق ثوبا يشبه في اللون نعلا

بغيتي أن أبدو

في كل حفل سندريلا

وأسائلها بأن تعطيني كل بطاقات انتساب لنواد

كي تعلمني اللغات و الغنا والرقص ليلا

وكيف أمتطي في الصيف بعد العصر خيلا

وأحاكيها بماذا سيكون لون شعري

عندما ياتي غدا موعد رحله " [14].

يتميز هذا المقطع بحركة واحدة، تعبّر عن ضمير المفرد المتكلم، وذلك من خلال الأفعال الآتية: (أصرخ، أرفس، ألقى، أبدو، أسائل، امتطي، أحاكي)، كلها أفعال مسندة إلى الذات المتكلمة/ أنا الشاعرة، حيث تبدأ باستثارة فضاء الاغتراب، الذي يعكس غضبها ووجعها، وكأننا نستشعر إسقاط الشاعرة أحزانها، التي تجسد صوت الانكسار، غير أن الذات الشاعرة/ السّاردة ما تلبث أن تتواصل مع الوجع والخجل، وتوقّعُ اعترافها وتنفجر. تقول الشاعرة:

"ويراعي شاخ في كفّي وصار الحرف كهلا
وحفّت رجلاي في دربه لكنّي اكتشفت
أنّني بعد سنين لم أزل أحبو على صفحاته الأولى
وأهجي أول الأحرف خجلي
ثم سجلت اعترافي:
أنني لا زلت في الميدان طفلة" [15] .

تواجه الشاعرة قسوة هذا العالم، وهي تمتطي فرس اليراع وتحمل سلاح الحرف ضد الحزن والوجع، لتثبت ذاتها وتخرج من صمتها.

يمكن القول: أن ضمير المتكلم المفرد يتيح للشاعرة المترجمة لذاتها، إمكانية تحقيق التطابق بين المؤلف والشخصية والسارد بصورة مباشرة.

2.3. عتبة العَناوين الدّاخلية ومركزية الأنَا:

يُعدُّ العنوان أول عتبة من عتبات النّص، فهي بالنسبة للنصوص الأدبية مرجعا مهما وفعّالا، يحمل في طياته علامات ورموز، تسهّل على المتلقي استخلاص البنية الدلالية للنص، وتحديد ثيمات الخطاب لما يحتويه من قابلية للتحليل والتفسير والفهم، وبما أن القصيدة السير ذاتية واحدة من الأنواع الأدبية المستحدثة، فإنها ترتكز على العتبة النصية، باعتبارها "ميثاقا أساسيا يتم بموجبه فك الكثير من الرّموز الغامضة، داخل الخطاب السير ذاتي الشعري" [16] .

سنقوم بدراسة العناوين الفرعية وعلاقتها مع المتن النصي، فعندما تتعالق العناوين مع متن النصوص؛ تشكّلُ محورا مشتركا عماده الذات ومركزية الأنا .

نجد في ديوان "شذرات من ذاتي" لعائشة جلاب، عنوانا فرعيا يشير الى أن تلك القصيدة تنْضمُ تحت جنس القصيدة السير ذاتية، العنوان هو "إلى ولدي رامي" هذا الاسم (رامي)، يحمل دلالة انتمائية بحكم أنه اسم لابن الشاعرة عائشة جلاب، هذا ما جاء في تصريحها الوارد في بداية القصيدة، حينما قالت: " إلى رامي... إلى فانوس أيامي إلى ولدي...إلى كبدي...إلى سندي إلى من لست انساه، إلى أن أسكن لحدي"[17] ، وجاء في القصيدة قولها:

" أأرثيك ...أي يراع جريء

ينقب في تربة الرّوح عل كلاما يجيء

فأدعو الدفاتر ...أدعو المحابر... أشكو إلى الضاد ذلي

أبوح إلى الصمت صمتي فلا من يجير ذهولي إلا بكاء بريء

وكل الكلام أراه هراء وكل الكلام رديء

ومهما ذكرت صفاتك لحسن صفاتك

أراني إليك أسيء

أحدّث هذا التراب الذي كنت تمشي عليه

وقد كنت كالظبي تأكل لحم المسافات

تركض فوق ثرى الأمنيات

فأنّ وضعت خطاك تدبّ الحياة"[18].

ترسم الشّاعرة عبر عنوان القصيدة، وخطابها الشعري مرثية، تبوح من خلالها عن صمْتها، فيجيرها البكاء البريء، حيث يتزعم ضمير المتكلم (أنا) الأسطر الشّعرية المعبّر عن شخصية الشّاعرة نفسها، لقد شكّل العنوان ميثاقا سير ذاتيا؛ تجلت ذات الشاعرة من خلاله، فهي في حالة من الضّياع والتيه، تعاني ألم الفراق والهجران، يقول محمد الغذامي: "

نسوية الرثاء لن تأتي من كونه فنًا تقوله النساء، وإنما تأتيه الصفة من كونه فن المشاعر المكبوتة وصوت الضمير الذاتي وصوت الحزن "[19].

يمكن القول: أن العنوان يعلن عن تناغمه التام مع المتن النصي، ويثْبت على وجود صلة بين حياة المؤلف، وما ورد في النص.

وفي السّياق نفسه يحمل عنوان قصيدة "إلى أبي"، لفظة تصريحية ودلالة انتمائية تعزز مركزية الأنا، بحكم أنّها رسالة موجهة إلى أبيها، الذي غيبته الموت.

يشكل هذا العنوان علاقة مع هذه المقطوعة، التي تتصل بوشائج القصيدة العائلية، إذ يمثل رثاء الأب رقعة للوجع والحزن، بلغة وصفية تنقل لنا مأساوية المشهد من(الأنا نحو الآخر)، تعكسُ الذات الشّاعرة احساسها بقساوة الفجيعة من خلال ما تثيره من جو نفسي حزين، يستعيد مصير المؤت المفاجئ والمحتوم، ويتجلى هذا بوضوح حينما تقول :

"عشرون عاما كنت تقطع من حياتك،، من كهولتك الكسيرة
من لقمة العيش المريرة
حتى توّمن منزلا ليضمنا من انقلابات الزمن
لكنك أثثته بالحزن بالويلات باليتم المخيف
وذهبت أنت لتسكن
قبرا باردا
لكننا كنا نريدك أنت،، فانت لنا السكن
فبك ومعك يا أبي كن نغمس خبزنا بأبوة كانت إداما سائغا لحياتنا "[20].

هذا ما يحيل إليه العنوان، إذ جاء متوافقا ومنسجما مع المتن النصي، لذا يمكن عده ميثاقا سير ذاتي، يحيل إلى أن هذا النص ينتمي إلى القصيدة السير ذاتية.

وإذا تأملنا -الإهداء- الذي دونته الشاعرة على ديوانها، فإننا نلحظ انتقالا من الأنا نحو الآخر، " فتتحول الكتابة الإبداعية إلى ممر وسيط بين الأنا والهو، في إطار ميثاق

تواصلي بين الأنا والغير"[21] . تقول في كتابة رقيقة نثرية تقريرية توجهها إلى أبيها: إلى روح والدي العزيز... إلى من وحده يستحق أنْ أهديه هذه المجموعة الشعرية؛ لأنه هو أول من تمنى أن تخرج إلى النّور، فالإهداء هنا عنصر موجه للنص السير ذاتي، عتبة نصية يسهم في إضاءة النص.

نخلص إلى القول: بأن العناوين أحالت بصفة مباشرة على مضمون النص، ولذا يمكن الاعتداد بها كميثاق سير ذاتي، توضح لنا أن هذه القصائد، تنتمي إلى التجربة الواقعية الخاصة بالشاعرة.

4. معالم تشكيل الفضاء السيرذاتي في "شذرات من ذاتي لعائشة جلاب ":

1.4. الفضاء المكاني:

من الأشياء المتميزة في بنية الخطاب الشعري، "تعدد الأمكنة الشعرية وانفتاح الشاعر على أمكنة قريبة أو بعيدة، ولد فيها أو عاش بها أو زارها أو حتى سمع بها أو عنها وهذا يعني أن الأمكنة لها أهمية بالغة كمكون للفضاء الشعري"[22]، كما أنّها "تخضع في تشكلاتها إلى مقياس مرتبط بالاتساع والضيق أو الانفتاح والانغلاق"[23]، حيثُ يشكل المكان في النص السّير ذاتي" أحد الأركان الرئيسة، التي تقوم عليها العملية السردية حدثاً وشخصيةً، وزمناً فهو الشاشة المشْهدية العاكسة والمجسدة لحركته وفاعليته.

وبما أن القصيدة السّير ذاتية هي: قولٌ شعري ذو نزعة سردية، فإننا نجدها تستعير من النصوص السردية ثنائية المكان والزمان؛ لتشكل بذلك فضاءً سير ذاتي داخل القصيدة، يُكوّنُ مرجعيات الأنا/ الذات التي تحكي تجربتها.

يمثل المكان عند الشاعرة تجربة واقعية حقيقية، وظفته في شعرها بطريقة مميزة، والذي تمحور أساسا في وصف القرية التي تقيم بها، إذ نجد حضورها بشكل واضح داخل المتن الشعري، باعتبارها القرية التي ولدت وترعرعت فيها، قَضت فترة طفولتها بين زيتونها وعشبها وبئرها، فهي مقر إقامتها الدائمة، تجلى ذلك في قوله:

"يا سيدي
أنا لم أرث من قريتي إلا الدّمار
وثياب والدتي وجزءا من خمار
ونداء جدّي يا ابنتي:
لا تنحني أبدا للعار...
قد كان لي يا سيدي كوخ صغير
ويحطه الزيتون مثل رموش غانية يدغدغها العبير
في وسط بئر به ماء كثير
يسقي قلوب الطين وكل عشب... وكل طير
لكن جنودك يا أمير
حولوا كوخ الصبا قبرا يئن ويستجير
قد حطموا الحلم الذي كان يقاسمني الوسادة والسرير
والقرية العذراء صارت هيكلا لا روح فيها لا شعور "[24]

يغدو المكان/ القرية / الكوخ عند الشاعرة، نقطة ارتكاز لتفجير أحزانها وأوجاعها الحياتية، أحزان الواقع بكل تمثيلاته من انكسارات، وتتحول إلى محطة سرابية ممزوجة بالحزن، إذ نلمح ذلك في عبارات: (أنا لم أرث من قريتي إلا الدمار ، حولوا كوخ الصّبا قبرا يئن ويستجير، حطّموا الحلم الذي كان يقاسمني الوسادة والسرير، والقرية العذراء صارت هيكلا لا روح فيها لا شعور). وهذا دليل على عظم المصيبة التي أصابت قرية / وطن الشاعرة، في سنوات العشرية السوداء بالجزائر.

جسدت القصيدة المكان الواقعي/الحقيقي للقرية ولذلك يمكن إدخالها ضمن الفضاء المكاني للقصيدة السير ذاتي.

كما تستحضر الشاعرة تيمة الوطن بشكل مكثّف، أبرزت من خلاله تجذرها في المكان/ الوطن، بصفته فضاء مفتوح، إذ تحول عندها موضوع الوطن إلى موضوعٍ يحمل

شعورها الوطني، ويحمل همّها تجاه وطنها فتكتب عنه" كقيمة تحمل كثيرا من الدلالات الروحية النفسية والثقافية والاجتماعية، وهو ما تبينه الأسطر الشعرية الآتية:

" كرائحة الأرض حين سماع أغاني لفيروز

في الليل تشدو

تعال سنرجع هيا بنا

وكننا يا ترى ما نغني

إلى أين نرجع والوطن يهرب منّا

ولسنا نراه سوى في الجرائد أو في الإذاعات باكي

ويبقى يفتش عن نقطة من وطن

فيرجع في الليل يغفو على شجر من شجن

كأمطار نيسان تغسل شعر المدينة وقت الغروب" [25]

توظف الشاعرة المكان/ الوطن حاملة لهمومه، معبّرة عن انكساراته وأوجاعه وعن الوضع المخيف، الذي تعيشه، فإحساسها بالقلق على الوطن، جعلها تتساءل عنه لتثبت وجودها وتكتشف ذاتها، لكن للأسف هرب منها هذا الوطن فاقدا للأمان و الأمل، كطير يسافر من وجع لوجع، فلا تراه سوى في الجرائد والإذاعات باكيا.

عمدت الشاعرة إلى تشخيص الحالة المأساوية، التي آل إليها وطنها، ما جعلها تفلح في رسم لوحة تراجيدية صادقة، لِما ألمّ بوطنها في سنوات الجمر.

كما تجلّت أيضا الأفْضية المغلقة في شعر ها، من خلال فضاء البيت والقبر والمنزل، حيث تعاملت معها بلغة شعرية متميزة، تحيل على الواقع الملموس، تقول الشاعرة:

" فالبيت بعدك قد تصدّع وأنحنى

أبوابه... جدرانه قد صار يعصرها الحنين إلى يديك

قد صار أطلالا تنوح بين أنياب السّنين

وتركتنا... لا ظهر يسند ضعفنا

لا قلب يحمي خوفنا

والريح توشك أن تُطير سقفنا .." [26].

تحيلنا الشاعرة من خلال ذكرها لتفاصيل البيت على علاقات انسانية، ووجدانية نشأت بينها وبين الأماكن، التي ترعرعت فيها ولازمتها طيلة حياتها، لقد تشكّل فضاء البيتِ في الأسطر الشّعرية وفق هندسة، جعلت منه الشّاعرة فضاء مأساوي ممقوت، فهو يسلب حياتها، ويحرمها من أحاسيس المشاعر والذكريات، التي تشدها نحو بيتها، تسترجعُ كل تفاصيله المادية، لقد (تَصْدَعَ وانحنى، أبوابه وجدرانه يعصرها الحنين، صار اطلالا)، أوجدتها لتخبرنا عن أبيها الذي وافته المنية، فغيابه أفقدها كل معاني البيت، أصبح لا معنى له طالما هو خال من وجود أبيها، وفي السّياق نفسه تقول:

"وذهبت أنتَ لتسكن قبرا باردا

لكننا كنا نريدك أنت.. فأنت لنا السّكن

فبك ومعك يا أبي كن نغمس خبزنا بأبوة كانت إداما سائغا لحياتنا" [27].

يتضح لنا في هذه الأسطر الشعرية ضعف وانكسار الشاعرة تجاه الحياة، بذكرها للقبر، الذي يمثل فضاء الرهبة والفزع، ناهيك عن كونه فضاء الوحشة والغربة، تعاملت معه الشاعرة بلغة تحيلنا على الواقع الحقيقي والملموس في ماديته، ونلمس ذلك في الحوار الذي أنشأته مع ذاتها، فيصبح مناجاة فردية، تقوم داخل النفس، إذ تبني الشاعرة عوالمها الذاتية، وتكشف عن حجم معاناتها ومأساتها، التي تعيشها مع أفراد عائلتها وربما كل يتيم.

استطاعت الشاعرة أن تشحن فضاء المكان بالكثير من الذكريات الحياتية والوجدانية، التي يحتدم فيها زمن هذه الأحداث، لتخلق متنفسا يختزل فيه أجزاء حية من تجاربها.

2.4. الفضاء الزماني:

يحضر الزّمن في القصيدة السير ذاتية بصورة جوهرية ومكثفة، عبر تحولاته وحركاتها الكثيرة، فهو من أهمّ عناصرها الفنية وخصائصها السردية، "إذ تتميز بفعل

استرجاع ذكريات الماضي التي تُسْتَدْعَى من رحم الذاكرة " [28] ، لهذا يدخل الزّمن الماضي ضمن البنية الزمنية للقصيدة السير ذاتية، يتعلق به الشّاعر ليتقرب من ذاته فيعيد بث الاحاسيس، والمشاعر وحفر الذاكرة.

تتجلى تقنية الاسترجاع في نصوص عائشة جلاب، بعودتها إلى اللحظات الماضية من حياتها، يتمثل هذا في قصيدتها "رسالة على جناح دمعة "، حينما تتذكر حالة الكدر والحزن التي كانت عليها:

"كتبت بالمدامع النقيهْ
دعوْتُ في الصلاة بالادعية التقيهْ
بعثْتث طائري مرفرفا... يردد ابتهالهْ
وكان قلبي البريد والدّواة والرسالهْ
فباسم ارض ثائرهْ
تسألكم بمنطق الأمومهْ
لماذا اغتلتم الأحلام في وسائد الصغار " [29] .

تسترجع الشاعرة أَسْوأ المحطات في حياتها، وأسْوأ ما عاشته في عمرها، - إنّها العشرية السوداء-، وتمارس حوارا مع الأنا من خلال الغوص في أعماق ذاتها، وعن طريق الاستفهام، تبحث عن تفاصيل دقيقة شكّلت نقطة تحوّل في حياتها، التي كانت آمنة.

كل هذه الصور الظاهرة في ثنايا المقطع الشعري، توحي بحزن الشاعرة في تلك اللحظة، وعليه نجدها تجسد تقنية الاسترجاع لحالتها الذاتية، الغارقة في الحزن و الأوجاع.

ومن التقنيات الزّمنية، التي تنطوي عليها القصيدة السير ذاتية، تقنية الاستباق وذلك عندما الرغبة في بالتنبؤ بشيء ما، أو عند استعجال قدومه، وهذا يستدعي "القفز على

فترة ما على زمن القصة وتجاوز النقطة، التي وصلها الخطاب لاستشراف مستقبل الأحداث، والتطلع إلى ما سيحصل من مستجدات" [30]، تستخدم الشاعرة هذه التقنية في قولها:

"فمن يا ترى سوف يسقي الزروع معي في المساء

ومن سيوزع حولي رذاذا من الضحكات

أيا عاشق البحر والشمس والأمنيات "[31].

وتقول في القصيدة نفسها:

" سأبق اخيط من الصبر ثوباً

بإبرة صدق وخيط رجاء

فيا ربّ إن كان احبابك المبتلون

فإنّا رضينا بهذا البلاء " [32].

توظف الشاعرة استفهاما غير حقيقي، من أجل التّعبير عن غرض محدّد وهو النّفي، حيث تنفي وجود من سيسقي معها الزروع، ويوزع حولها رذاذا من الضحكات مستعجلة بقدوم ولدها -رامي- شوقا له، وأملا في استعجال حدوث القدوم، وذلك باستخدام حرف (السين)، للدلالة على زمن المستقبل، الذي شكلت من خلاله الرغبة في تمسكها بالصبر والصّدق الرّجاء والرّضا.

كما لجأت الشاعرة إلى استخدام تقنية الحوار الداخلي، من خلال ما تديره من حوار ذاتي، يكشف عن هواجس النفس وتصوراتها، وردود أفعالها، يتجلى ذلك في قولها:

" أنا حره

ولن أشرح...

لأني لست مضطرة

ولست أخاف أن تسمح ... أو أنك لم تعد تسمح

وسوف أدكّ شباّكي وجدراني

لتدخل شمس نيساني

فتغسل كل معنى الخوف من روحي ووجداني

لينمو غصن ألحاني

يمد الظّل للأقمار للآتي

يمدّ النور والنوار للأجيال للأطيار للشمس

وينسج ثوب أحلامي

بخيطان من الإكبار والعز

ولن أخفي هوياتي وراء اللفظ والرمز"[33] .

نلمح في هذا المقطع الشعري حوارا داخليًا، أجرته الشاعرة مع ذاتها، يجسّده فعل التصريح والمكاشفة عند الذات الشاعرة المتمردة، طلبا للحرية في البوح دون قناع متجاوزة خوفها وضعف أنوثتها، والاضطهاد الممارس في حقها، فتتجرأُ على إعلان حريتها وتخرج من صمتها، وتمضي الذات الشاعرة مع التمرد، تصارع الخطوات المكبوتة، وتصف حريتها، معلنة بإبداعها عن صمودها وقوتها.

شكلت الشاعرة فضاءً زمانيًا سير ذاتي، من خلال خطابها المعبر عن تجربتها الذاتية الماضية، وهذا دليل على انتماء قصيدتها إلى جنس القصيدة السير ذاتية.

إن للتقنيات الزمنية، تأثير واضح داخل بنية النصوص الشعرية، وخاصة السير ذاتية منها؛ ذلك لما تحدثه من مفارقات زمنية ضمن القصيدة السير ذاتية، وهذا ما تجلى بصورة أو بأخرى في ديوان الشاعرة .

خاتمة:

خلاصة مما تقدم فإن القصيدة السير ذاتية هي: أحدُ الأشكال الأدبية المهجنة انبثقت نتيجة حدوث تمازج بين جنسين أدبيين هما: السيرة الذاتية والشعر، إذ يسرد فيها الشاعر سيرته الذاتية، من خلال استرجاعه لماضيه، وقد برزت نتيجة تداخل الشعري مع السردي في السّير ذاتي.

يقوم تشكيل الخطاب السير ذاتي عند عائشة جلاب على ركيزة أساسية، تكمن في تجليات الضمير السير ذاتي" أنا "، الذي يحيل على شخصية الشاعرة المسيطرة على سيرورة السّرد داخل القصيدة السير ذاتية، كما تكمنُ في تجليات الميثاق السير ذاتي على مستوى العناوين الداخلية بوصفها أول علامة يوضحها للمتلقي، الذي يثبت انتماء الخطاب الشعري إلى جنس الكتابة السير ذاتية، كما تستعير القصيدة السير ذاتية عندها ثنائية "الزماكانية"؛ حيث تقوم في عمومها على بُنيات زمنية متنوعة، - تلخصت في الاسترجاع، والاستباق، والحوار الداخلي-، منحتها حرية التّنقل في أزمنة متنوعة، وعلى بنيات مكانية، بنوعيها: المفتوحة كالقرية، والمغلقة كالبيت والقبر، معبّرة عن علاقتها بها، في بنيات نصية تحمل خصائص سردية، وعليه فإنّ القصيدة السير ذاتية ترتبط بالزمان والمكان، مشكلة لذاتها فضاء سير ذاتي.

إنّ الخطاب الشعري السير ذاتي عند عائشة جلاب، فضاء للبوح عن مكنوناتها النفسية، تجول فيه الأنا الشاعرة بواقعية، بغية تحقيق ذاتها وإثبات هويتها.

*** *** ***

الهوامش

[1] - عائشة جلاب شاعرة وروائية من مدينة عين فكرون ولاية أم البواقي، الجزائر ، بدأت تقرض الشّعر في المرحلة الثانوية، بعد أن تأثرات بالشعر الجاهلي و بالمراحل التي تليه، نالت العديد من الجوائز الولائية والوطنية منها جائزة المسابقة العربية للشعر العمودي بالمنستير التونسية 2018، جائزة اتحاد الأدباء الدولي بالعراق 2018، جائزة شاعر الشّرق السيد زكريا بالقاهرة 2019، صدر لها العديد من الدواوين منها: شذرات من ذاتي 2014، إبداعات نسوية مغاربية (إصدار جماعي) 2017، مشاعل جزائرية 2018،سفر في عيون بربرية 2019، نون النشوة 2019، تاء التأنيث (ديوان) تحت الطبع ، دروب الخيزران(رواية) تحت الطبع.

2- محمد صابر عبيد، تمظهرات التشكيل السير ذاتي في تجربة محمد القيسي السير ذاتية، منشورات اتحاد الكتب العرب، د ط، دمشق، 2005، ص 139.

3 - المرجع نفسه، ص 139.

4 - المرجع نفسه، ص 139.

5 - حاتم الصّكر، مرايا نرسيس الأنماط النوعية و التشكلات البنائية لقصيدة السرد الحديثة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت، لبنان، 1999، ص 140.

6 - زهور كرام، السرد النسائي العربي مقاربة في المفهوم و الخطاب، شركة النشر والتوزيع – المدارس-، ط1، الدار البيضاء، ، 2004، ص 115.

7 - سامر صدقي محمد موسى، رواية السيرة الذاتية في أدب توفيف الحكيم- دراسة نقدية تحليلية- ، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، فلسطسن،2010، ص 66 .

8 - عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية – بحث في تقنيات السرد-، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط1، الكويت، 1998، ص 162.

9 - المرجع نفسه، ص 162 .

10 - حاتم الصّكر، المرجع السابق ، ص 146 .

11 - عائشة جلاب، شذرات من ذاتي، نوميديا للطباعة والنشر، ط1، قسنطينة، الجزائر، 2014 ص، 12

12 - المصدر نفسه، ص 15.

13 - المصدر نفسه، ص 80.

14 - المصدر نفسه، ص 18.

15 - المصدر نفسه، ص 22 – 23.

16 - خليل شكري هياس، القصيدة السير ذاتية بنية النص وتشكيل الخطاب، عالم الكتب الحديث، ط1،إربد، الأردن، 2010،، ص 102.

17 - عائشة جلاب، المصدر السابق ،ص 93.

18 - المصدر نفسه، ص 93- 94 .

19 - عبد الله محمد الغذامي ، تأنيث القصيدة والقارئ المختلف، المركز الثقافي العربي، ط 2،بيروت، الدار البيضاء، 2005، ص 53.

20 - عائشة جلاب، المصدر السابق، ص 13.

21 - جميل حمداوي، سيميوطيقا العنوان، دار الريف للطبع والنشر الالكتروني، ط2، الناظور تطوان، المملكة المغربية، 2020، ص 9.

22 - محمد صالح خرفي، جمالية المكان في الشعر الجزائري المعاصر، أطروحة دكتوراه علوم، قسم اللغة والأدب، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2005، ص 22

23 - حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الادبي، المركز العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، الدار البيضاء، 2005، ص 72.

24 - عائشة جلاب، المصدر السابق، ص 52.

25 - المصدر نفسه، ص 24.

26 - المصدر نفسه، ص15.

27 - المصدر نفسه، ص 13.

28 - ينظر :خليل شكري هياس، المرجع السابق، ص. 175.

29 - عائشة جلاب، المصدر السابق ص 44.

30 - حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)،المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، بيروت، 1990، ص 132.

31 - عائشة جلاب، المصدر السابق، ص95.

32 - المصدر نفسه، ص 99.

33 - المصدر نفسه، ص75.